مجلة التميز، المجلد 04، العدد 02، (2022)،ص 35-42

قوائم المحتويات متاحة على ASJP المنصة الجزائرية للمجلات العلمية

مجلة التميز

الصفحة الرئيسية للمجلة: www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/673

الخطاب السيميائي لأمبرتو إيكو وعلاقته بمفهوم العلامة لدى بيرس

Umberto Eco's semiotic discourse and it's relationship to Pierce's concept of sign

نجيب ربيعي [1،*]، لزهر فارس [2].

[1] جامعة العربي التبسي تبسة، nadjib.rebiai@univ-tebessa.dz .

[2] جامعة العربي التبسة تبسة، fares_lazhar@yahoo.com .

معلومات المقال

تاريخ المقال:

الإرسال:

المراجعة:

القبول:

الكلمات المفتاحية:

ما بعد البنيوية

السيميوزيس

التلقي

الطوبيك

العلامة

القراءة.

ملخص

تعد الجهود السيميائية لأمبرتو إيكو علامة فارقة في الدراسات النقدية لما بعد البنيوية، وذلك من خلال طروحاتها حول مدى انفتاح النص على القراءات والتأويلات، وكذا مدى انفصال عُرى الدلالة من خلال انفلات المدلول.

وفي هذه الورقة البحثية نسعى إلى الكشف عن بعض مرتكزات الدرس السيميائي لدى إيكو ممثلا في جهود ساندرس بيرس وما قدمه من مفاهيم حول النص والعلامة أفاد منها إيكو في تشكيل رؤيته النقدية، كما نحاول الوقوف على أهم نقاط التقاطع والتمايز بين المنجزين النقديين بحثا عن أصالة ما أضافه إيكو إلى حقل السيميوطيقا.

Keywords

Post structuralism
Semiosis
Receptivity
Utopia
Sign
Reading

Abstract

Umberto Eco's semiotic efforts are considered as a milestone in the post-structuralism critical studies, and that is through it's subtractions about the extent of both the text openness to reading and interpretations, and the connection of the indication links through the inversion of the signified.

In this research paper, detect some semiotic lesson concentration according to Eco, as represented in Pierce efforts and what concepts he presented about the text and the sign, through which he benefited in forming his critical vision, we also try to find the most important similarities and differences between the two critical works, In search of the authenticity of in what Eco added to semiotic

* المؤلف المرسل: نجيب ربيعي. nadjib.rebiai@univ-tebessa.dz

1. مقدمة:

إن الحديث عن نقد ما بعد البنيوية يقتضي في جوهره استحضار الأسس والمعطيات بل والخلفيات الفكرية والثقافية والفلسفية واللسانية..الخ، والتي كان لها الإسهام الكبير في تشكيل المشهد النقدي المعاصر بكل تياراته ومناهجه المختلفة والمتعددة عبر رسم ملامح الخطاب النقدي وفق الجينات التي أفرزتها تلك التربة الثقافية ضمن خصوصياتها وتاريخياتها، بما يعني أن النقد المعاصر إن هو إلا صورة وتجلي واضح لجملة من المرجعيات والخلفيات التي صاغت رؤاه تنظيرا وتطبيقا.

وضمن هذا السياق تعد طروحات سيميوطيقا "بيرس" إحدى المنطلقات المعرفية والمنهجية وكذا الفكرية التي كان لها الدور البارز والفعال في بلورة العديد من المفاهيم النقدية في متن النقد لمرحلة ما بعد البنيوية وما يعزز ذلك هو الحضور الجلي لمعطياتها ومقولاتها في مضامين طروحات نقاد ما بعد البنيوية من أمثال أمبرتو إيكو وجاك دريدا وغيرهما، وقد ارتبطت السيميوطيقا البيرسية بميراث فلسفي واسع وشامل وممتد عبر التاريخ بدءًا من جذوره الأولى في الفلسفة اليونانية مع أفلاطون وأرسطو، مروراً بفلاسفة الشك وصولا إلى فلاسفة العصر الحديث كديكارت وجون لوك وغيرهم.

ولاشك أن السيميوطيقا في انبساطها على كطل هذا الميراث الفلسفي كله هو ما أهلها لتكون منظوراً شموليا يحوي الكون بأكمله وطرحاً منهجيا يضم كافة أشكال التواصل البشري على اختلافه وتعدد مجالاته، مما جعلها تمتد لتلامس أغلب أطياف الحياة الإنسانية في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والثقافة..، وهذه الشمولية تنبني على رؤية ترى في الكون كله علامات ولأجل ذلك أتت على دراسة حياة العلامة وطرائق اشتغالها وفهم وظائفها وطبيعة العلائق فيما بينها.

وبناءًا على ذلك نسعى من وراء هذه المقاربة لاستكناه جهود "بيرس" وطروحاته السيميوطيقية في تشكيل رؤى نقد ما بعد البنيوية على وجه التحديد، ويهدف هذا المقال إلى تعرية العلاقة المرجعية القائمة بين سيميوطيقا بيرس وجهود أمبرتو إيكو في القراءة والتأويل، وتأسيسا على ذلك حاولنا أن نقارب هذه العلاقة عبر الإجابة على جملة من الأسئلة التي صغناها كما يأتي:

- ما العلاقة التي تربط مقولات سيميوطيقا "بيرس" وطروحاتها بالجهود النقدية لـ"أمبرتو إيكو"؟
- ما الذي أفاده "أمبرتو إيكو" من طروحات هذه السيميوطيقا؟
- ما الذي أضافه "أمبرتو إيكو" تجديدا وتجاوزا لسيميوطيقا "بيرس" من خلال النظر إلى العلامة واشتغالها عبر النصوص؟ ما هي حدود السيرورة الدلالية عند كل من "بيرس" و"أمبرتو إيكو"؟

2. حدود العملية التأويلية (من السميوزيس إلى الطوبيك):

1.2. السميوزيس ودلالته: يعتبر السميوزيس من أهم المفاهيم التي انبنت عليها العديد من الطروحات النقدية الما بعد بنيوية في مقاربة النصوص، وهو ما نجده حاضرا في متون الدراسات النقدية المعاصرة كالطرح النقدي لأمبرتو إيكو والذي يعد موضوع مقاربتنا هذه في علاقتها بالمرجعيات التي ترتبط بجهود سيميوطيقا بيرس، وفي هذا السياق نحاول استجلاء مدلول هذا المصطلح وأبعاده، فما الذي يعنيه السيميوزيس على صعيد الدلالة والمفهوم؟

السميوزيس مفهوم مركزي تقوم عليه سميوطيقا بيرس، ويرتبط معناه بالمفهوم البيرسي للعلامة، حيث يشير إلى كونه "سيرورة متحركة لإنتاج الدلالة وتداولها واشتغالها، سيرورة تنتهي إلى الذوبان في فعل يتقمص مظهر العادة والقيم والتقاليد، وكل أشكال السلوك التي تتحول مع الزمن إلى معيار يُبنى عليه أساسه العنصر المتحقق... ويعد هذا الفعل من زاوية السميوزيس عادة داخل الإنسان وقانوناً داخل المجتمع" (سعيد بنكراد، 1988، ص49-50).

والسيرورة التدليلية سيرورة منطقية حيث يشتغل السميوزيس البيرسي تبعا لنظام محدد، ذلك أن مكونات العلامة تمارس الإحالة من طرف إلى طرف آخر، وما ينتج من معنى نتيجة هذا التفاعل يكون بدوره معنى آخر في متوالية مستمرة، فيتحول كل معنى في حد ذاته إلى علامة، "فالعلامة أو الممثل هو الأول الذي ينوب عن الثاني الذي يسمى موضوعاً وهذا الموضوع يحيل بدوره على موضوع آخر بنفس الطريقة، أي أن المؤول يصبح هو نفسه علامة وهكذا إلى ما لا نهاية" (أحمد يونس، 2008، ص55).

وبهذا المعنى تظهر سيميوطيقا بيرس على أنها سيميوطيقا دلالية وتواصلية وتمثيلية في آن واحد، لذلك نجد بيرس يقسم الدليل إلى مكونات ثلاث هي "الممثل/الدليل كونه دليلاً في المقام الأول ومن موضوع الدليل (المعنى) في البعد الثاني... ومن المدلول الذي يفسر كيفية إحالة الدليل على موضوعه في البعد الثالث" (مبارك حنون، 1987، ص79)، وهذه الأبعاد الثلاثة لدى بيرس ليست منفصلة على مستوى وظائفها لأنها تتفاعل فيما بينها لتشكل وحدة متكاملة لعمل السميوزيس، "فالسيرورة الدلالية أو السميوزيس هي عملية انصهار الأبعاد الثلاثة واشتغالها على أنها وحدة كاملة" (أحمد يونس، 2008، ص111-112).

إن التصور البيرسي للعلامة تصور يحمل طابع الجدة ويتمثل ذلك في أنه متجاوز للمنظور السوسيري لها، إذ العلامة السوسيرية ذات مظهرين عبرت عنه اللسانيات الحديثة التي أقام بنيانها هذا العالم من خلال ثنائية الدال والمدلول، في مقابل أن العلامة البيرسية ثلاثية التشكيل، هذا بالإضافة إلى البعد المنطقي الذي تصطبغ به، حيث تصبح –مع بيرس- شبكة التدليل محكومة بعلاقات منطقية فلا يمكن أن نتصور عنصرا أولا في معادلة ما في غياب تصورنا لعنصر ثان مرتبط به على نحو إحالي منطقي وهذا هو ما يفتح دائرة الاحتمالية على مصراعيها.

2.2. السميوزيس: المقولات: تعد المقولات التي استند إليها بيرس في تنظيراته السيميوطيقية المسلك الواضح الذي يؤدي إلى إدراك بنية السميوزيس وما يتفرع عنه من تقسيمات متعددة ومتنوعة، فأيا كان أمر تجارب الإنسان على اختلافها وتعددها وتنوعها وغناها وخصوبتها، فهي لا تتعدى إطار أصول ثلاثة، هي "الأصل والمنطق في إدراك الكون وإدراك الذات وإنتاج المعرفة وتداولها... وتنطلق الثلاثية من النوعية (أول) إلى الفعل (ثان) أي من الاحساس إلى الوجود إلى التوسط، إلى قانون (ثالث)" (سعيد بنكراد، 2005، 41-42).

وهذه المقولات نوردها على النحو الآتي ذكره:

1.2.2. المقولة الأولى: هذه المقولة تتعلق بالانطباعات الحسية التي تتشكل في الذات من خلال احتكاكها بالعالم الخارجي وما يحمله من أشياء وموضوعات، وهذه بحد ذاتها بمثابة ظواهر حسية في بدايتها عند مواجهتها للذات بغض النظر عن عنصر الزمان أو المكان، فالعالم "يَمْثُلُ أمامنا في مرحلة أولى في شكل أحاسيس ونوعيات مفصولة عن أي سياق زماني أو مكاني... وتشير هذه المقولة إلى الإمكان فقط فلا شيء يوحي بأن معطياتها قد تتحقق في واقعة ما"(سعيد بنكراد،2012،ص88).

وتوضيحا لهذه المقولة نضرب مثالا عن ذلك: فنحن عندما نكون حيال لفظ ما ولتكن لفظة "حصان" فهي في منظور هذه المقولة ليست سوى مجرد جملة من المكونات الصوتية في مظهرها الحسي المعطى لنا أول وهلة، وأول لحظة التقاء مع هذه اللفظة هو تشكيل لانطباع حسي خال من أي معنى تماما مثلما ترى الأشياء المحسوسة في عالمنا المحيط بنا. إذن فهذه المقولة هي تجسيد لمبدأ الإحساس الأولى لموضوعات العالم الخارجي.

2.2.2. المقولة الثانية: ترتبط هذه المقولة بعالم الفردية وهي تشير إلى عملية الانتقال من المستوى الحسي **الأول** الساذج إلى فعل الإدراك أي إلى التموضع ضمن دلالة ما، أي التحول من دائرة الإمكان إلى دائرة الوجود الفعلي، وتَمَثُّلٌ حَدَثِيّ للشيء في سياق زماني ومكاني محددين، وبذلك ينقشع ويزول الغموض، فهذه المقولة تعني "الواقعة والوجود، وجود الشيء ووجود الحدث ووجود الفكرة والوضعية [...] إنها مقولة الهُنَا والآن... وجود الشيء الذي حدث في زمان ومكان معينين [...] إن [الثانوية] من هذه الزاوية بالذات هي الشرط الأساسي لتحويل اللامكان واللاتحديد... إلى حقائق مجسدة داخل حقل التجربة الإنسانية" (سعيد بنكراد، 2005، ص64).

3.2.2. المقولة الثالثة (القانون): وتفيد هذه المقولة أن فهم العالم والكون لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تحول إلى رموز دالة أي أن يتم إفراغ محتواه الدلالي في قوالب رمزية تخرجه من حيز الغموض والإبهام إلى حيز الوضوح والتجلي، وتمثل عملية الترميز هنا دور الوسيط بين الإنسان من جهة والكون من جهة ثانية، وبفعل هذه العملية تنضبط علاقة الإنسان بالعالم الخارجي عبر وسائط كالدين واللغة والأساطير والخرافات التي تنتجها الشعوب، إن هذا العالم يعني "الفكر في محاولته تفسير معالم الأشياء" (جميل حمداوي، 2011، ص09).

وبناء على هذه المقولات ذات الأساس الظاهراتي تبلورت رؤية بيرس للعلامة القائمة على أبعادها الثلاثة (الماثول، الموضوع، المؤول) وانبنت علاقتها من منطلق التفاعل الوظيفي فيما بينها لتشكل "سلسلة من الإحالات، وهي ما يشكل نظرية

بيرس ما يطلق عليه السميوزيس أي النشاط الرمزي الذي يقود إلى إنتاج الدلالة وتداولها" (سعيد بنكراد، 2012،ص16).

وعلى الرغم مما عرفته سيميوطيقا بيرس من كثرة في التعريفات والتقسيمات التي تختص بحركية السميوزيس، مما أضفى عليها بعض الغموض والتعقيد أحيانا، إلا أنها تبقى تجربة رائدة في الدرس السيميائي المعاصر ومنعطفا هاماً في تحولاته المعرفية والمنهجية لكن يبقى السؤال مطروحًا: إلى أي مدى يمكن أن تحقق سيميوطيقا بيرس تماسكها كطرح إجرائي في النصوص؟

3. أمبرتو إيكو ومقولة الطوبيك:

لا نعدو الصواب إذا قلنا أن مقولة السميوزيس لدى بيرس مثلت تأسيسا ابستيميًا لعدة دراسات في حقل السيمائيات التأويلية التي عاصرتها والتي تلتها وجاءت بعدها، فلقد أفاد من الدرس السميوطيقي لبيرس أمبرتو إيكو على صعيد النظرية وكذا التطبيق -وإن اختلفت زاوية النظر والرؤية- بينهما للمعادلة التأويلية للنصوص، "فالمتناهي واللامتناهي والنمو اللولبي للعلامة وحركة الفعل التدليلي والسميوزيس كلها مفاهيم تقودها إلى وضع أسئلة تخص حجم التأويل وكثافته وأبعاده وأشكاله" (أمبرتو إيكو، 2000، ص09).

وإذا كان بيرس قد أوقف نشاطه التأويلي في حدود العلامة وإطارها في ممارساته، فإن إيكو تجاوزها في سعي منه إلى تحرير النص من ربقة الفهم الأحادي له، كما عمل على وضع حد لعجلة الدلالة القائمة على مبدأ التعدد في المعنى بشكل لا نهائي، ولذلك نجده يدخل مفهوما جديداً إلى حقل التداول النقدي أطلق عليه الطوبيك، وهذا الأخير يعد من أبرز المقولات التي طرحها إيكو والتي بموجبها يحدد آليات القراءة النشطة المُنشطة للنص، فالنص "يحتاج إلى قارئ نموذجي (UV lecteur Modèle) يفعل في التوليد مثلما يفعل الكاتب في البناء والتكوين ويكون قادراً على تحيين (Actualisation) النص بالطريقة التي يفكر بها الكاتب" (محمد خرماش، 1998، ص54).

وترتبط مقولة الطوبيك لدى إيكو بمفهومين آخرين يعدان تتمة المعادلة الإيكوية في العمل القرائي، وعلى أساسها يفهم معنى الطوبيك وهذان المفهومان هما: الموسوعة والعالم الممكن، وفي هذا السياق يطرح السؤال نفسه ما هو معنى الطوبيك؟ وما المقصود بالموسوعة والعوالم الممكنة؟

1.3. الطوبيك:

يعتبر الطوبيك بمثابة منطلق فرضي أولي عام يستند إليه كل قارئ أثناء مباشرته النص قرائيا، فهو يعد خطاطة عامة أو رسما لمعالم ومسارات عامة سابقة للحظة التفاعل بين القارئ والمقروء ودخول عوالم هذا الأخير، إنه وبحسب تعبير إيكو "أداة سابقة للنص أو ترسيمة عند القارئ" (سعيد بنكراد، 1996، ص103).

وهذه الترسيمة حسب منظور –إيكو- تقوم بدور السيطرة والتحكم في انفلاتات السميوزيس، فهي بذلك عملية تأطير لحركة هذا الأخير ضمن حدود معينة، وعملية التأطير هذه أو التسييج ضرورية حتى يتمكن القارئ من أن يحدد مسار عمله القرائي دون أن ينفلت فيفقد بذلك مجال حركة فعل التدليل أي التحكم في سميوزسية القراءة نفسها، إحداهما مع ما افترضته قبل القيام بعمله التجريبي، غير أنه لابد أن نؤكد أن هذا الحكم السابق للتجربة ليس عملاً اعتباطيا ساذجا بل هو حكم يعتمد أسلوباً حدسياً في تشمم دائرة المعاني التي يفجرها الاحتكاك الأول بين ذات القارئ والنص، ويمكن أن نتلمس ذلك عبر مظاهر تأمل العنوان أو الكلمات الرئيسية التي تُعد مفاتيح النص، وعلى هذا الأساس تنبني عملية الانتقاء الدلالية، فيتم تبني خصائص دلالية للوحدات المعجمية واستبعاد أخرى وكل ذلك بهدف "الوصول إلى الانسجام التأويلي الذي يطلق عليه التناظر (Isotopie)" (سعيد بنكراد، 1988، ص50).

ويمكن أيضا توضيح مفهوم الطوبيك اعتباراً من كونه فرضية متصلة ومتعلقة بالقارئ الذي يقوم بصياغتها بطريقة بسيطة على شكل أسئلة تنطرح من نوع: ربما يتعلق الأمر بالقضية الفلانية، أي أنه نوع من التخمين الفعلي الاستباقي الذي يقدم مقترحات حول المقروء، فكما أن العالم المُجرب يضع في البداية –أي بداية عمله- جملة من الفرضيات أو الحلول المؤقتة على شكل أحكام واستنتاجات مبدئية، ثم بعد أن يخوض غمار التجريب يتوصل إلى جملة من الحقائق وقد تتطابق مع ما افترضه مسبقا، فتتأكد هذه الحقائق أو قد تخرج عن إطار ما افترضه، فتبقى مجرد مسلك احتمالي في القراءة.

والطوبيك بهذا المعنى يقدم نفسه كفرضية لازمة تقيم الحدود بين محتوى النص ومضامينه وبين النشاط الذهني الذي يصاحب أي عمل تأويلي، وهنا تتضح غاية أمبرتو إيكو من طرحه لهذا المفهوم (أي الطوبيك) مبينا أنه من أجل التحكم في زمام العملية التأويلية لابد من تفعيل دور السياق، وفي ذلك إلجام للانفتاح اللانهائي للنشاط التأويلي، فيبقى التأويل عملاً مشروطاً مؤطراً لأنه وعن طريق استراتيجية الطوبيك يتوقف الانفتاح لمتاهات السميوزيس في توليد المعاني وعندها تتموضع

القراءة ضمن إطار ممكنات التأويل التي يمكن أن تتحقق عبر القراءات المتنوعة.

2.3. العالم الممكن:

هي المقولة الثانية في المعادلة التأويلية لدى أمبرتو إيكو، ويقدم تعريفا لها حيث يقول "يعرف العالم الممكن بأنه حالة من الأمور يُعبر عنها مجموعة من القضايا، حيث تكون كل قضية إما-م أو لا-م" (أمبرتو إيكو، 1996، ص168-169).

ويفهم من قول إيكو أن العالم الممكن هو عالم متخيل يصعنه القارئ صناعة افتراضية عندما يقوم بعملية التأويل، أي أنه بناء ذهني يقوم على تصورات القارئ الخاصة حول النص، لكن هذا الافتراض مشروط بمعطيات واقع النص ذاته، حتى لا يكون مجرد أوهام يصطنعها خيال القارئ، "فهناك اختلاف حاسم بين مجاميع فارغة من عوالم لتلك التي يستخدمها المنطق الجهوي وبين العوالم الفردية المؤثثة" (أمبرتو إيكو، 1996، ص164).

فالقارئ في أثناء عملية القراءة يصوغ فرضيات ذهنية ممكنة –وهو ما يقصده إيكو- وليست كل الفرضيات صحيحة أو ممكنة، وفي مقابل ذلك يقارن بين ما افترضه وبين تصوره حول مساره، فإذا كان النص رواية مثلا، فالقارئ يقوم بتخيل المسار الحدثي وذلك وفق تخمينات تستند إلى ما يملكه من مخزون ثقافي، وكل تخمين يضعه القارئ يبقى مجرد احتمال من بين العديد من الاحتمالات الواردة التي يتصورها، وربما لم يتفطن لها ومن ثم قد تأتي هذه التخمينات مقاربة أو محاذية أو حتى مباينة لما يتضمنه النص.

ويقسم إيكو العالم الممكن إلى قسمين: قسم يربطه بالمؤلف وقسم يعزيه إلى القارئ، والمؤلف بما يقيمه من استراتيجيات نصية يسعى إلى إثارة حفيظة القارئ النموذجي، ويحفزه على التأويل، وبين طرفي المعادلة القرائية يرتمي العالم الممكن بينهما، حيث "يَمْثُلُ العالم الممكن الموسوم أثناء التفاعل التأويلي بين النص والقارئ النموذجي" (رشيد الإدريسي، 2000، ص71).

ثم يأتي لينصب العالم الممكن نفسه بناءً ثقافيا يؤسسه القارئ، اعتماداً على الرصيد المعرفي الثقافي له. لكن هل هذا العالم الممكن: هو عالم معزول عن الواقع ومنفصل عنه؟

يرى أمبرتو إيكو أن العالم الممكن شأنه شأن العالم الواقعي، فهما يتقاطعان في نقطة وهي كونهما بناء ثقافي، فأياً كانت هذه العوالم "سواء أكانت متخيلة أو واقعية فهي عبارة عن بناء ثقافي قائم على الموسوعة، إذ لا يوجد عالم واقعي فيزيائي محض، كما لا يوجد عالم متخيل مطلق مفارق للغة والأنظمة السيميائية" (وحيد بوعزيز، 2007، ص03) ، ومرد ذلك أن عالم الواقع لا يتسم بالكمال، فهو متعدد ومتنوع بتعدد وتنوع نظرة الناس تبعا لثقافاتهم نوعا ومستوى ودرجة.

3.3. الموسوعة:

تمثل هذه المقولة الرصيد اللغوي والثقافي الممتد في السياق الاجتماعي الذي يقتضيه النص من جهة وينهل منه القارئ مادة الفهم والتأويل، وفي غياب هذا الرصيد يفقد القارئ القدرة على خلق شراكة تفاعلية بينه وبين النص، فالموسوعة بهذا هي ما "يفترضه النص ويستحضره القارئ كي يستطيع المواجهة بين التمظهر الخطي لذلك النص وبين بنياته اللسانية وبدون كفاءة (موسوعية) لا يمكن التعاون مع النص أو مساعدته على إنجاز مبتغياته، ولا يمكن للقارئ أن يكون هو ذلك المشارك الفعال الذي يملأ الفراغات ويحمل التناقضات ويستخلص المقولات" (محمد خرماش، 1998، ص54).

وما يفضي إليه هذا القول هو أن صاحب النص –وهو يبني نصه- يضع في الحسبان أن متلق النص –على تعدد أشكاله- سوف يخالف في تأويله ما يرغب فيه هو، وهنا تأتي مؤهلات القراء اللسانية باعتبارها موروثا اجتماعيا لتعمل كاستراتيجية تحوي ضمنها كافة القراء، ولا يرتبط الإرث الاجتماعي في هذا المقام بلغة مخصوصة بعينها في بعدها (التقعيدي)، بل إنه يمتد ليشمل كل ما تعلق بالاستعمالات الخاصة باللغة، كما يستدعي الإحاطة بالسياق الثقافي لهذا النص الذي يظهر في تجليات اللغة، إضافة إلى القراءات التأويلية السابقة لهذا النص، وعليه فإن فعل القراءة يشكل "تفاعلا مركباً بين أهلية القارئ... وبين الأهلية التي يستدعيها النص..." (أمبرتو إيكو، 2000، ص86).

إن الموسوعة ذاكرة متعددة الغرف والصور والأشكال، فمنها ما يتصل بالواقعي الراهن ومنها ما يتعلق بالخيالي، فإذا ارتبط الأمر فيها بالعالم الراهن الواقعي فإنها تحيل على معنى أنها تشكل منتهى المعرفة أي مجموع صور العالم، أما إذا ارتبط الأمر بالخيالي فإنها تقتضي بناءً موضوعيا مستمدًا من الواقعي، فليس هناك انفصال بين الموسوعتين بشكل مطلق، كما أنه في نفس الوقت توجد اختلافات بينهما، ففي الأعمال

الروائية نجد للايدولوجيا حضوراً بارزاً على عكس الأعمال الشعرية على سبيل المثال لا الحصر.

كما يشير أمبرتو إيكو إلى فكرة مفاده أن شكل الموسوعة متعلق بالنص، وأن لكل نوع من النصوص موسوعته، إذ أن هناك نصوصا تقتضي موسوعة واحدة، في مقابل أننا نجد نصوصا أخرى ذات شروط مغايرة تقتضي موسوعة غنية حتى تكون كافية، "فروايات إيكو تنماز بموسوعات ثرية، ومتغيرة ومركبة تتضمن موسوعات الراوي، والسارد، والشخصيات، فهي روايات موسوعية ذات قيمة فائقة..." (كالفنيو إيتالو، 1999، ص117).

وتأسيسا على ما أورده أمبرتو إيكو حول مفهوم الموسوعة تتبدى هذه الأخيرة كرصيد يضم كافة المعارف المسبقة والمجرّدة التي تمتلكها الجماعات والأفراد، وهي في الوقت ذاته تتجاوز ما يملكه الأفراد والكليات من معرفة، فهي تبدو وكأنها حاصل تجميع لمنجزات معرفية لكل الثقافات.

علاوة على ذلك فإن البعد الموسوعي يتعدى المُعطى المعجمي لينفتح مجال المعرفة الثقافية التي لا يقدمها المعجم، فالمعجم مثلا يقدم لنا لفظة (جَبَلْ) على أنها مظهر من مظاهر الطبيعة المادية الجامدة، لكنه لا يقدم لنا معرفة حوله مثل الصلابة، الشجاعة، الشموخ، المناعة وعلو الهمة...، كذلك لفظة (أسد) فهو في المعجم يحيل على ذلك الحيوان المفترس لكنه لا يحيل معجميا على معنى الشجاعة، الشهامة..

لقد سعى أمبرتو إيكو في ممارساته التأويلية ضمن مشروعه السيميائي باحثا "عن إيجاد إجراءات تعصم المؤول والعملية التأويلية من الإفراط الذي يجعل النص مسرحاً لمختلف صنوف التجارب، وهو الأمر الذي دفعه إلى وضع مقاييس موضوعية تمكن الباحث من تمييز التأويلات المناسبة عن غير المناسبة أو الخاطئة" (عبد الغني بارة، 2009، ص167).

ويبقى النص عند إيكو مجالا رحبا يحفّز تأويلات متعددة تقع في دائرة المحتمل وتكتسب صبغة التجدد المستمر مما يحمل على فتح آفاق إدراكية معرفية حول النصوص للمؤول، وهذا الأخير ينطلق نشاطه التأويلي من قناعة وهي أن ما يتوصل إليه عبر التأويل ليس إلا نتيجة أولية ومرحلية ومؤقتة من بين حلقات الناتج التأويلي، وبذلك فهو محكوم عليه بالمتجاوزة المستمرة، و"من هذا المنظور يتعين على مجتمع القراء إدراك هوية النص تدريجيا بتطوير تأويلاتهم وفق العملية القصدية، وكلما أتت هذه التأويلات قوية كلما ساعدت على تبرير النص، وأصبح شيئا فشيئا عادات تأويلية بمعنى قراءات متناظرة ومتداولة اجتماعيا، وفي الوقت نفسه عُدت بمثابة مقاييس لتأويلات أخرى" (نادية بوشفرة، 2014، ص05).

4. خاتمة:

إن تقرير نتائج لطرح نقدي وابستيمي بحجم ما قدمه أمبرتو إيكو في الدراسات النقدية المعاصرة يحتاج في الحقيقة إلى تقصي وإلمام واسع بمضامين الحركة النقدية لما بعد البنيوية وامتداداتها في متون المناهج النقدية المتعددة، كما يقتضي الإلمام بخيوط النشاط النقدي في مجال السيميائيات المعاصرة ونقاط التلازم والتقاطع والتوازي بين أطروحاتها المتعددة والمختلفة في آن واحد، لكن رغم كل هذه الصعوبات المعرفية والمنهجية نحاول أن نلامس حدود وتخوم المنجز النقدي السيميائي لدى أمبرتو إيكو في علاقته بجهود بيرس باعتبارها تأسيسا معرفيا يقوم على القطيعة من جهة وعلى الاتصال من جهة ثانية، مما يوحي بالتواشج العميق بين مناحي الفكر النقدي المعاصر.

وما يمكن أن نصل إليه في نهاية المطاف وكخلاصة واستنتاج لما تم عرضه في هذا المقال المقتضب، ومن خلال دراسة صلات السيميوطيقا البيرسية بالمنجز النقدي لأمبرتو إيكو، نحاول أن نقدمه عبر النقاط التالية:

– لقد عُدت سيميوطيقا بيرس دعامة أساسية في إبداع رؤى جديدة في قراءة العالم والموجودات، ولا غرابة في ذلك لأن بيرس وسّع دائرة العلامة لتشمل الكون بأكمله، بل غدا الكون ذاته رمزا يحيل على مداليل.

– علاوة على ذلك فإن ما يحسب لبيرس أنه وطدّ علاقة تواشج بين طروحات الفلسفة من جهة وبين السيميوطيقا من جهة مقابلة، ولهذا الربط قيمته في توسيع مجال السيميوطيقا واشتغالها النقدي على مختلف الخطابات والنصوص، فقد اتسم تحليل بيرس للعلامة بكونه تحليلا يحمل صبغة فلسفية من حيث استخدامه للمصطلح الفلسفي، وتبعا لذلك جاءت تصنيفاته للعلامات، ولعل ما يبرر توجهه الفلسفي كونه فيلسوفا بالدرجة الأولى.

– لكن ما يؤاخذ عليه بيرس هو أنه حوّل كل شيء في هذا العالم إلى علامات حتى غدا الإنسان ومشاعره وأحاسيسه وتفكيره، وبهذا أصبح الإنسان في عالم مغلق ومغلف من كل جهة بالعلامات، مما يستدعي سؤالا ضروريا وهو: ألا يوجد في نظام بيرس السيميوطيقي ما يجعل العلامة تحيل على شيء

خارج ذاتها؟ ومن ثمة كيف يمكن أن يتحرر وينفلت الإنسان من إسار هذا العالم المغلق ضمن دائرة العلامة؟

– إن سيميوطيقا بيرس تؤسس لسميوزيس مشروط غير مطلق العنان، فهي وإن كانت تفتح أفق التدليل عبر انفتاح العلامة إلا أنها تجعله مسيجاً في دائرة التجريد ولغة المنطق، وهذا ما يجعل طرح بيرس يقصي طرفا هاما في التحليل النقدي وهو المتلقي، فقد أمسى هو الأخير سجين المنطق الفلسفي.

– أما ما يختلف به بيرس عن إيكو فيتمثل في كون بيرس أقام مفهومه للعلامات الإيقونية بناءً على اعتبار أن العلاقة بينهما قائمة على مجرد التشابه، في مقابل أن إيكو يتجاوز في نظرته للعلامة الأيقونة، هذا المبدأ والعلامة، ذلك أن علاقة الأيقونة بالشيء لا تقف عند حدود التشابه وحسب، بل تتعدى ذلك إلى إدراكها حسياً، وفي ذات السياق يؤكد إيكو أن العلاقة هذه ذات طبيعة ذهنية قائمة على أساس فكري وثقافي.

– ما ينماز به إيكو كناقد هو كونه يحمل رؤية معتدلة في المعادلة النقدية، فقد أوقف عمل القراءة التأويلية ضمن حدود معقولة رغم أنه يقر بانفتاح النص وتعدد القراءة ومن ثم تعدد الدلالة، إلا أنه في المقابل يفرض معايير وشروط لعملية القراءة حتى لا تتحول إلى عمل عبثي ولعب حر، وراح يبحث في هذا السياق عما يجعل القارئ يبلغ قراءة جيدة ويتجاوز القراءات الخاطئة.

وقف إيكو في إبراز قيمة كل عنصر في العملية القرائية موقفا وسطيا، فقد أعاد للمؤلف قيمته لكن باعتباره عنصرا جماليا على خلاف الرؤى التي أصبغته بلغة الميتافيزيقا، وفي المقابل جعل للقارئ دورا فاعلا في عملية إنتاج الدلالة في الاشتغال النصي دون أن يُقصي قيمة النص كجسد لغوي مشحون بالعلامات والدلالات الظاهرة والخفية، وبهذا الشكل أقام تشاركية بين هذه العناصر الثلاث تُمكن من بلوغ قراءة نقدية مقبولة ومعقولة في آن واحد.

(خط ثخينSakkal Majallaمقاس 16)

يجب أن تحتوي مقدمة المقال على تمهيد مناسب للموضوع، ثم طرح لإشكالية البحث ووضع الفرضيات المناسبة، بالإضافة إلى تحديد أهداف البحث ومنهجيته، وذكر الأبحاث والدراسات السابقة التي تناولت الموضوع. (بداية كل فقرة في المقال ترك مسافة بطريقة آلية وليس يدوية/ المسافة بين السطور 1 في كل المقال/ خط Sakkal Majalla في كامل المقال بمقاس 14)

- المصادر والمراجع:

1. أحمد يونس، السيميائيات الواصفة، المنطق السيميائي، وجبر العلامات، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2008.
2. أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، تر وتق: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2000.
3. أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية (التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية)، تر: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1996.
4. جميل حمداوي، السيميوطيقا من النظرية إلى التطبيق، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2011.
5. رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل (الحريري بين العبارة والإشارة)، المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000.
6. سعيد بنكراد، السميوزيس والقراءة والتأويل، مجلة علامات، المغرب، ع10، 1988.
7. سعيد بنكراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط3، 2012.
8. سعيد بنكراد، السيميائيات والتأويل، مدخل السيميائيات ش.س بورس، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005.
9. سعيد بنكراد، النص السردي نحو سيميائيات للإديولوجيا، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 1996.
10. عبد الغني بارة، استعمال النصوص وحدود التأويل (في نقد الممارسة التأويلية عند أمبرتو إيكو)، مجلة مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة بسكرة، ع01، 2009.
11. كالفنيو إيتالو، ستُ وصايا للألفية القادمة (محاضرات في الإبداع)، تر وتق: محمد الأسعد، مرا: زبيدة أشكناني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1999.
12. مبارك حنون، دروس في السيميائيات، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987.

13. محمد خرماش، فعل القراءة وإشكالية التلقي، مجلة علامات، المغرب، ع100، 1998.
14. نادية بوشفرة، الشراكة النصية عند أمبرتو إيكو، مقاربة معرفية لدراسة الإستراتيجية النصية، مجلة الأثر، ورقلة، الجزائر، ع21، ديسمبر 2014.
15. وحيد بوعزيز، مفهوم النص والتأويل عند أمبرتو إيكو (آليات التعضيد النصي، رواية صحراء لجون غوستاف لوكليزو أنموذجا)، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر02، 2007.